التولّد في كتاب (الإشارات الإلهية) لأبي حيان التوحيدي

أ.د. فائز طه عمر

جامعة الشارقة– الإمارات

ملخص

يقوم هذا البحث على دراسة ظاهرة فنية أبدع بها أبو حيان التوحيدي وعبّر من خلالها عمّا يتمتّع به من مقدرة عقلية وذخيرة لغوية و عُدّة فنية تلك هي ظاهرة التولّد التي برزت واضحةً في كتابه الإشارات الإلهية، على أنّ التوحيدي لم يكن مبتكر هذه الظاهرة الأسلوبية، بل هو مسبوق باستعمال الزهّاد والنسّاك لها في وصاياهم وخطبهم مما نجده عند الحسن البصري وبعض معاصريه، على أن التوحيدي استعملها وسيلة فنيّة بارزة لأداء المعاني الصوفية الدقيقة التي ضمّها كتابه المذكور وبرع فيها براعة فائقة. والتولّد هو خروج المعاني بعضها من بعض في تعمّق وتدرّج يؤدّيان إلى التدقيق في هذه المعاني وتفريعها بإيجاد علاقة توالد بين المعنى السابق واللاحق استنادا إلى وسيلتي التكرار والاشتقاق. وقد حاولنا دراسة هذه الظاهرة الأسلوبية بتقسيمها على أربعة أقسام هي: التولد التكراري، والتولد الاشتقاقي، والتولد العكسي، والتولد التركيبي. وقد استند هذا البحث إلى قراءة دقيقة للنصوص التي عبّرت عن هذه الظاهرة مع الاستعانة بمصادر مناسبة.

Abstract

This paper tackles the technical phenomenon of generation. Abu Hayyan At-Tawhidi excels in employing this phenomenon by which he reveals his mental and linguistic abilities which are represented through his *Al-Isharat Al-Ilaheya*. In fact, generation is extracting meanings from each others in depth and gradation leading to auditing these meanings and widening them. This is done by finding a generating relation between the former meaning and the latter one by means of repetition and derivation. Actually, we try, through this paper, to study this stylistic phenomenon by

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

dividing it into four divisions: repetitive generation, derivative generation, opposing generation and a structured one. This paper depends on an accurate study of texts in which this phenomenon is employed, with consulting relevant sources.

يستند أبو حيان التوحيدي (414هـ)، في ما خلّفه من نصوص مثيرة وعميقة إلى مقدرة عقليّة وذخيرة لغويّة وعُدّة فنية مشهودة، ممّا تجلّى قويّا في ظواهر أسلوبية بيّنة في ما كتبه، لعلّ من أبرزها تولّده المعاني من معان سابقة عليها بوسائل وطرائق سيحاول هذا البحث بيانها مُستضيئا بمنهج أسلوبيّ يُعنى بالنصّ ويهتمّ بخصائصه(1) التي كوّنت هذه الظاهرة الإبداعية، وهي ظاهرة لغوية يُتيح هذا المنهج أمامنا إدراك أبعادها الجمالية(2). وسيكون مجال هذا البحث في هذه الظاهرة كتاب التوحيدي: (الإشارات الإلهية)(3)، لظهورها فيه بقوة وكثرة، وهذا الكتاب هو الوحيد الذي بقي من جملة كتبه الصوفية المفقودة.

وكان د.إحسان عباس قد انتبه على هذه الظاهرة في نصوص الكتاب المذكور وسمّاها التولّد(4)، وتابعته في هذه التسمية د.وداد القاضي في مقدمة تحقيقها هذا الكتاب(5)، على أننا اخترنا كلمة التوليد عند دراستنا نثر التوحيدي(6)، وفي دراستنا النثر الصوفي الذي وجدنا فيه هذه الظاهرة جليّة أيضا اخترنا كلمة تولّد(7)، لما وجدناه فيها من وصف انسيابية هذه الظاهرة وتدفّقها التلقائي غير المتكلَّف في نثر التوحيدي أو في نثر الصوفية عامة، ولئلا يتداخل التوليد بالتوليد الذي قصد به ابن رشيق (456هـ) استخراج (الشاعر معنى من معنى شاعر تقدّمه، أو يزيد فيه زيادة)(8) كلّ ذلك دعانا إلى وسمها بها في هذا البحث على أنّ (تولّد) من تولّدَ و(توليد) من ولَّدَ، وإن كان جذرهما الأصلي واحدا وهو الفعل ولد(9).

وعلى الرّغم من اقتراب إحدى الباحثات من ظاهرة التولّد في كتاب (الإشارات الإلهية) في دراستها هذا الكتاب دراسة لغوية، من خلال تناولها اتساع الجملة وتمددها فيه، بالتعاقب والترتّب، بحسب تعبيرها، وغير ذلك(1)، لم تتنبه عليها.

والتولّد هو خروج المعاني بعضها من بعض في تعمّق و تدرّج يؤدّيان إلى التدقيق في هذه المعاني، بإيجاد علاقة توالد بين المعنى السابق و اللاحق.(11)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

وتقوم هذه الظاهرة على تولّد جملة واحدة أو عدّة جمل من جملة سابقة، تبدأ بالكلمة نفسها التي انتهت عنده الجملة السابقة أو أحد مشتقّاتها، أو بتكرار الكلمة الأول أحيانا أو بأحد مشتقّاتها، وهكذا تنبثق جملة من جملة على نحو متتال أحيانا، ويحقق هذا مستوى متماسكا من العلاقات بين الجمل، فقد تُولّد جملة من جملة، أو جملتان وأكثر من جملة واحدة على النحو الذي ذكرناه، وقد يكون هذا التولّد تولّد كلمة من كلمة على سبيل التكرار أو الاشتقاق اللذين هما عمادا هذه الظاهرة ومحوراها ووسيلتاها، كما سنرى.

وعامةُ ما ذُكر عن هذه الظاهرة في نثر التوحيدي، من إحسان عباس ووداد القاضي ومنّا سابقا، كان وصفا سطحيّا لها، ممّا دعانا إلى تتبع الفقرات والعبارات الكثيرة التي وردت فيها هذه الظاهرة في هذا الكتاب لتعمّق دراستها وبيان مكوّناتها الأسلوبية التي سنحاول تصنيفها بحسب طبيعتها ومكوّناتها.

ولابد من ذكر أنّ التوحيدي لم يكن أوّل من استعمل التولّد وسيلة لإظهار أفكاره وتعمّقها، مما قالته د.وداد القاضي من سبق الحارث المحاسبي (243هـ) في استعمال هذا الفنّ(12)، على أن المحاسبي هذا الصوفي المتقدّم كان قد سُبق إلى هذا الاستعمال من الزهّاد والعبّاد في وصاياهم ومواعظهم وخطبهم قبله، فهذا الحسن البصري (110هـ) قد قال: (فرحم الله رجلا نظر فتفكّر، وتفكّر فاعتبر، واعتبر فأبصر، وأبصر فصبر...)(13)، وعلى هذا النحو جاء بعض وصايا زهّاد ونسّاك آخرين(14)، غير أنها لم تعبّر عن ظاهرة جليّة واسعة في نثرهم، أما التوحيدي فقد اتخذها طريقة من طرائق التعبير عن معانٍ بدت خفيةً، قصدها في نثره الصوفي على سبيل تعمّقها وتتبع آثارها وتفريعها.

ولعلّ ما وُصف به نثر التوحيدي عامة من غنى اللغة وقوة الخيال والإحاطة بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة، ومن تعمّق ودقة نظر وحسن منطق(15) يجد في هذه الظاهرة تعبيرا قويا عنه، مما يُغري بدرسها.

ويُتيح أمامنا المنهج الأسلوبي فرصة تصنيف هذه الظاهرة وتقسيمها من خلال تفكيك عناصرها المكوّنة لها(16)، في سياق (نظرة نقدية شاملة تشمل النصّ بكلّ تكويناته الصوتية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

والمعجمية والدلالية والتركيبية)(17) وسنبيّن تجليّات هذه الظاهرة وأقسامها بحسب طبيعتها كما أسلفنا من دون أن يتقيّد البحث بالتقسيمات الأسلوبيّة المعروفة.

التولّد التكراري

لعلّ مسوّغ البدء بدراسة هذه الظاهرة الأسلوبية بمحاولة إضاءة التولّد التكراري الذي ورد في جملها وفقراتها هو أنّ هذا التكرار مزيّة صوتيّة لابد من تناولها أوّلا استنادا إلى حقيقة أنّ اللغة أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن حاجاتهم(18)، وما يلفت الأسماع والأذهان إلى النص هو ما يضمّه من عناصر صوتيّة تتجمّع في سياق واحد لتحقّق إيقاعا صوتيّا يعمّق دلالة الكلام ويُظهر تناسقه، وسيكون ذلك باختيار نماذج مناسبة معبّرة عن قوّة التولّد الصوتي الأسلوبي في هذه الظاهرة، منطلقين من حقيقة أن التكرار هو المعبّر عن العناصر الصوتية كلها وما تحققه من إيقاع، فتكرار الحرف الوارد في الكلمات المرتبطة ارتباطا اشتقاقيا في ما يُعرف بالجناس الاشتقاقي، وغيره والكلمة المفردة، والتراكيب المتناظرة، فضلا عن السجع، كلّها ظواهر أسلوبية صوتية قوامها التكرار، مما يدعونا إلى تناولها على نحو إجمالي يُظهر قيمة هذا الضرب التكراري أو ذاك من خلال علاقته وتضافره مع الضرب الآخر، في إنتاج ظاهرة التولّد، في سياق محاولة البحث عن أثر هذه الظاهرة في إحداث ظاهرة التكرار، وغيرها من فقرات الأنماط الأسلوبية المعبّرة عن هذه الظاهرة، فضلا عن أن هذا التناول سيُتيح للبحث عدم الترهّل وتكرار الأفكار.

سنحاول في هذا المقام اختيار نماذج مناسبة تعيننا على إدراك العلاقة التفاعلية بين التكرار، بوصفه عنصرا من عناصر التولّد، والتولّد بوصفه محفّزا لهذا التكرار، فمن ذلك قول التوحيدي :(والفَرَحات مطويّة على التّرحات، والترحات مبنيّة على الفرحات..)(19) فالتولّد هو ما دفع التوحيدي إلى تكرار كلمة (الفرحات) مرّتين، مرّة جاءت مولِّدة فهي (الفاعل)، أي أنها هي التي ولّدت ما بعدها وهي (التَّرحات)، ثمّ أنها جاءت مولَّدةً، بصيغة المفعول، عن التّرَحات الثانية التي تكررت أيضا مرتين على النحو نفسه المعبّر عن علاقة تفاعليّة تبادليّة بين هاتين الكلمتين المكرّرتين، فالكلمتان تولّدتا عن بعض، وجاءت صيغتهما الاشتقاقية (جمع المؤنث السالم) مؤدّية سجعا أفضى إلى تقوية الإيقاع وإظهاره.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

ولعلّ الأمر يتّضح أكثر في قوله: (إنك لن تقف على حدود هذه المرامي وعلى عواقب هذه الأسامي إلا بعد أن تخلع نفسك من نفسك كما تخلع قميصك من جلدك، وكما تخلع جلدك من لحمك، وكما تخلع لحمك من عظمك.)(20)، فنفسك الأولى بدت مختلفة عن الأولى في دلالتها مما يجيز عدّ هذا التكرار جناسا تامّا، ذلك أنّ نفس الأولى(نفسك) دلّت على المخاطب (الإنسان)، أما الثانية فدلّت على ما تعبّر عنه كلمة نفس عند الصوفيّة من شهوات ورغبات (21) حتى تصبح النفس متماهيةً في شهواتها فتبدوان شيئا واحدا، أي النفس وشهواتها، مما أظن أن التوحيدي أراده، على أن هذا التماهي يكون متدرّجا بحسب قوة إيغال المخاطب في شهواته، فعلاقة النفس بشهواتها كعلاقة الجلد بالقميص الملبوس الذي يبدو نزعه سهلا (كما تخلع قميصك من جلدك)، على أنّ الأمر يصعب شيئا فشيئا حتى تصل العلاقة بين النفس وشهواتها إلى علاقة الجلد باللحم (كما تخلع جلدك من لحمك)، فالخلع هنا صعب ومؤذٍ جدا لشدة التلاحم بين اللحم وما يكسوه من جلد، ثمّ إن هذه العلاقة بين النفس وشهواتها تتعمق أحيانا حتى يحتاج من تمادى فيها إلى خلعٍ أشدّ إيلاما هو كخلع اللحم من العظم: (كما تخلع لحمك من عظمك)، فهذه الكلمات المكررة (نفسك وتخلع وكما وجلدك ولحمك) توالدت عن بعض في سياق تتبع علاقة النفس بشهواتها على نحو متصاعد، فضلا عمّا أفضت إليه من ظهور واضح للسجع.

ويبدو التكرار وسيلة إطناب لدى التوحيدي، يريد به تفصيل الفكرة التي يشرع في ذكرها مستندا في هذا إلى تولّد بعض المعاني من بعض في قوله: (والاعتراف بالنعمة مدعاة للزيادة، والزيادة موقوفة على الاعتراف..)(22)، فهو يستطيع الاكتفاء بكلمة (الزيادة) الأولى ويستأنف وصفها دون ذكرها ثانية، غير أن رغبته في التنبيه على أهميّة هذه الزيادة وللوقوف على مكمنها دعاه إلى هذا التكرار الذي أدّى إلى تحقيق التولّد.

ويعمد التوحيدي على الإلحاح على ذكر كلمة مقصودة مرارًا حتى تبدو لهذه الكلمة دلالة مختلفة في كلّ مرة، وإن كانت على نحو جزئي، وبعدها يطرح كلمة أخرى مُكرّرة انبثقت من سياق الكلام لتشكّل جميعها وقعا موسيقيّا فاعلا تكلّل بانتهائها بحرف واحد فحقق سجعا مثّل عنصرا معزّزا للإيقاع كلّه مما يوحي بأجواء خاصة في قوله: (فرأيت هنالك خلقا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

يعشق خلقا، وخلقا يقتضي خلقا، فطلبت فرقا فلم أجد فرقا)(23). والحقّ أن تكرار الكلمة المفردة ظاهرة واسعة في الجمل المولَدة، بل إن هذا التكرار هو أحد محوري هذه الظاهرة، كما ذكرنا سابقا.

وعمد التوحيدي كثيرا إلى تكرار التراكيب، ولاسيما تركيب الشرط المتمثل بأداته وفعل الشرط وجوابه وهو تركيب تولّدي بتولّد الجزاء وتحقّقه من تحقق الشرط، فكثيرا ما جاء فعل الشرط وجوابه كلمة مُكرّرة، نحو قوله: (إن فعلتَ فعلتَ سَرفا، وإن تركت تركت صلفا، وإن نطقتَ نطقتَ تمويها.)(24)، فأداة الشرط (إن) كُرّرت ثلاثا، وكُرّر الفعل المسند إلى المخاطب (فعلتَ) و(تركتَ) مرّتين في كلّ مرّة، فالأوّل جاء فعلا للشرط والثاني جوابا له، ممّا يُغيّر دلالة الفعل الذي جاء جوابا عن دلالته عندما جاء شرطا، ولاشكّ في أنّ تكرار الفعل مرّتين بسياقه أحدث إيقاعا في موضعه، تآزر مع الإيقاع التالي المتحقق من تكرار الفعل الآخر الذي جاء على السياق السابق (إن تركت تركت صلفا)، وما يتلوه أيضا (وإن نطقت نطقت تمويها)، وكان انتهاء الجملتين الشرطيتين الأوليين (إن فعلت فعلت سرفا، وإن تركت تركت صلفا) بحرف واحد مُحدثا سجعا متعاقبا: (سرفا، صلفا، وفعلت، تركت) أدّى إلى تقوية الإيقاع وتعميق موسيقى هذا الاستعمال، وكان للجملة الأخيرة (إن نطقت نطقت تمويها) الأثر الصوتي الآخر الذي أسهم في تحقيق الإيقاع الذي قصده التوحيدي لغاية دلالية تُسهم في تقريب المعاني الخفيّة التي قصدها إلى ذهن القارئ.

ويُلحق التوحيدي أحيانا بفعل الجواب الذي هو نفسه فعل الشرط حالا أو حالين يصفان فاعل فعل الجواب، ليبدو هذا الفاعل مختلفا عن فاعل فعل الشرط الذي كان الفعل نفسه الذي استعمله جوابا في سياق تولّدي، في نحو قوله: (إن نطق نطق خزيان منقطعا، وإن سكت سكت حيران مرتدعا، وإن قرب قرب خاضعا، وإن بعُد بعُد خاشعا..)(25)، فبدا فعل الشرط موصوفا بما وُصف به فعل الجواب في سياق إيقاعي كثيف تمثّل في تكرار أداة الشرط: إن وفعل الشرط وجوابه في كل جملة شرطية، وفي السجع المتحقق في الأحوال المتعاقبة المنتهية بحرف العين المنوّنة، وبعد ذلك يعمد إلى تغيير الحال المفردة إلى جملة حالية: (وإن طلب واليأس غالب عليه، وإن أمسك والبلاء قاصد إليه..)(26).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

ولم يكن الشرط وحده هو ما كرره التوحيدي من تراكيب في سياق الجملة التولدية بل عمد إلى تكرار صيغة الاستفهام، على نحو لا يقل عن تكرار الشرط، من ذلك مثلا تكراره همزة الاستفهام الداخلة على ما الزائدة ثماني عشرة مرّة، في قوله الذي يناجي به الله تعالى الذي خاطبه بحبيبي، ومنه (حبيبي: أما ترى ضيعتي في تحفّظي؟ أما ترى رقدتي في تيقّظي؟ أما ترى تفرّقي في تجمّعي؟ أما ترى غُصّتي في إساغتي؟ أما ترى دعائي لغيري مع قلّة إجابتي؟ أما ترى ضلالي في اهتدائي؟..)(27)، وهكذا يعمد التوحيدي إلى تولّد الشيء من ضدّه في سياق واحد ليشير إلى احتواء هذا الشيء على ضدّه، في بنيته وصيرورته مما آمن به.(28) وظهور التضاد وتوالد الضدّ من ضدّه له شأنه في هذه الظاهرة مما سنشير إليه في موضعه. ولا نريد الاستغراق كثيرا في تناول التكرار عامة، فهو ظاهرة واسعة بيّنة في مواضع التولّد وتشمل أيضا تكراره أشباه الجمل مما رأيناه في النصوص السابقة وفي غيرها(29).

التولّد الاشتقاقي

ذكرنا سابقا أنّ الاشتقاق أحد محوري التولّد، مع التكرار، ويتجلّى في ما يُدعى بالجناس الاشتقاقي الذي تجلّى به التولّد على نحو بيّن، وكان ينبغي تقديمه على هذا الموضع من البحث على أننا آثرنا تأخيره وإفراده لأهمّيته وكثرته وشدّة تعبيره عن ظاهرة التولد، ذلك أن الاشتقاق أكثر الظواهر اللغوية تعبيرا عن هذا التولّد، فهو في أصله ومفهومه عملية استخراج لفظ من لفظ أو صيغة من أخرى، في سياق نموّ دلالي واتساع معنوي(30) وتبقى المادة اللغوية الأصلية، سواء كانت مصدرا أم فعلا ماضيا(31) محتفظة بكيانها المتحقق في أحرفها المكوّنة لها.

ولا شك في تحقق الأثر الصوتي في الاشتقاق الحاصل عن تكرار الأحرف الأصول، فضلا عن الاتساع الدلالي للكلمة. ويمكننا حصر أنماط الاشتقاق في النصوص التولدية عامة بأربعة: هي اشتقاق فعل من فعل(32)، واشتقاق فعل من اسم(33)، واشتقاق اسم من اسم (34)، واشتقاق اسم من فعل(35)، مراعين الكمّ في هذا الترتيب. فمن اشتقاق الفعل من الفعل قوله: (وحّدوا فوجدوا، وتوحّدوا فاتحدوا.)(36)، فقد ولّد الفعل الماضي المضعف وحّدوا فعلين أُشتقا منه هما: توحّدوا واتّحدوا، وحقق تتالي هذه الأفعال انسجاما صوتيا واضحا وتولَّدَ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

دلالات جديدة، مما يتضح أكثر في قوله أيضا: (يا من رآني وكأنه لا يراني: أما تراني كيف براني، ثم أراني ما أراني، ورآني فيما رآني، ثم استرآني واسترعاني، ثم قال: لن تراني بأن لا تراني)(37)، فقد ولّد الفعل :رأى عدة أفعال أُشتقت منه هي: أراني واسترآني وتراني، وقد عمد إلى تكرارها مما أظهر القوة الصوتية لهذه الأفعال وعزّزها، فضلا عن استعماله الجناس الناقص في تراني و براني، واسترآني واسترعاني مما عزز الانسجام الصوتي ونوّع الدلالات.

ومن تولّده الفعل من الاسم بالاشتقاق قوله: (يا هذا: الغريب من غرُبت شمس جماله، واغترب عن حبيبه وعذّاله، وأغرب في أقواله وأفعاله، وغرّب في إدباره وإقباله، واستغرب في طمره وسرباله.)(38)، فقد تمكن التوحيدي مستجيبا للمعنى والمقام من تولّد عدة أفعال من كلمة الغريب التي هي صفة مشبهة باسم الفاعل، هي: غربت واغترب وأغرب وغرّب واستغرب، وهي كلها أفعال مزيدة استثمرها التوحيدي لبيان أحوال الغريب الصوفي المشتقة والمنبثقة عن سلوكه وحاله وصفته.

ومن تولّده أفعالا عديدة من أسماء مختلفة أيضا قوله: (فإنك إذا هُديت لهذا الطريق سلكت واجدا، ووُجدت غانما، وغنمت جذلا، وجذلت ناعما، ونعمت واصلا، ووصلت مقبولا، وقبلت مرضيّا، ورضيت مكفيّا، وكُفيت محميّا، وحُميت مهديّا.)(39)، فقد ولّد الفعل وجدت من الاسم واجدًا، وغنمت من غانما، وجذلت من جذلا، ونعمت من ناعما، وقبلت من مقبولا، وكُفيت من مكفيّا، وحُميت من محميّا، على نحو متتال متناغم ذي دلالات مقصودة اقتضت هذا التولّد الاشتقاقي المتعدّد.

ومن تولّد الاسم من الاسم قوله: (وزدني إفضالا من فضلك، أزدك إجلالا من جلالك .)(40)، فالمصدر إفضال أُشتقّ من فضل المتأخّر عليه، وإجلال من جلال المتأخّر عليه أيضا، ليُظهر أن الإفضال انبثق عن فضل الله تعالى وأن الإجلال عن جلاله تعالى.

ومن تولّد الاسم من الفعل قوله: (يمنع وهو في منعه مُعطٍ ،ويُحرم وهو في حرمانه واهب، ويضع وهو في وضعه رافع، ويرفع وهو في رفعه واضع، ويُذلّ وهو في إذلاله مُعزّ، ويُعرض وهو في إعراضه مُقبل، ويُبعد وهو في إبعاده مقرّب.)(41) فقد اشتق منعه من الفعل يمنع، وحرمانه من الفعل يُحرم، ووضعه من الفعل يضع، ورفعه من الفعل يرفع الذي أُشتُقّ من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

اسم الفاعل رافع، وإذلاله من يُذلّ، وإعراضه من يُعرض، وإبعاده من يُبعد، مؤكّدا من كلّ ذلك اجتماع المتضادات في حيّز واحد.

وقد يعمد التوحيدي إلى اشتقاق اسم من فعل و فعل من اسم على نحو متداخل ومعكوس اقتضاه المقام والسياق وما أراد قوله، نحو قوله: (وإذا وجدت بحالك ذلك فاستمل من وجدك بوجدك، حتى تحضر غائبا، وتغيب حاضرا، وتُغمض مبصرا، وتُبصر مُغمَضا، وتحيا مُكرَما، وتكرَم مُحيّا.)(42)، فقد ولّد التوحيدي في هذا النص اسما من فعل وعدة أفعال من عدة أسماء محقّقا ما عُرف بالبلاغة العربية بالعكس أو الجناس المعكوس الذي ظهر في نصوص سابقة، وهو (أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول، وبعضهم يسميه التبديل)(43)، ويُدعى أيضا بالقلب(44)، على أن ما عُكس هنا هي ألفاظ مشتقة من بعضها مما يُعطي لهذا العكس مزيّة صوتية إيقاعية ودلالية خاصة، فضلا عن هذا فقد ظهرت علاقات ضدّية بين الألفاظ المتوالدة المشتقة تُعطي لهذا الاستعمال بُعدا دلاليّا عميقًا، سنشير إليه من خلال نصوص أخرى.

التولّد العكسي:

يحتلّ هذا النوع من التولّد أهمية واضحة في ظاهرة التولّد عامةً، ويحقق أعلى مستوى في تعميق المعاني وتفريعها وتتبّعها، ولهذا التولّد العكسي في كتاب (الإشارات الإلهية) مستويان: الأول والأكثر هو المستوى التضادّي الذي يناظر ما عُرف في البلاغة العربية بالمضادّة(45)، والآخر وهو المستوى التوافقي.

وقد تولّدت عن العكس معان متضادّة كثيرة وعميقة جعلت من التولّد عامة ذا أُفُق شمولي يتّسع مع اتساع الفكرة وشمولها وانتشارها في آفاق متضادة متعايشة، يُفضي بعضُها إلى بعض في نسق تعايشي لا يتّسم بالتناقض بل بالإتحاد، مما صرّح به التوحيدي الذي أشرنا إلى إيمانه بوحدة الأضداد وتعايشها في موضع سابق، وهو يقول بهذا الصدد: (لأن الأضداد تدخل تحت الأسماء المعروضة بنوع من التصاحب. لأن التصاحب صورة مأخوذة من الوحدة.)(46)، ويُدرك التوحيدي ما يؤدي إليه التولّد الضدّي من غموض أطلق عليه اللغز، بيد أنه عندما عمد إلى تفسير بعض نصوصه فسّره بتولّد ضدّي أيضا مستعملا أفعال أمر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

متعاقبة، بقوله: (يا هذا: تجمّع عن تفرّقك، وتفرّق في تجمّعك، أتدري ما تفسير هذا اللغز؟ أي احضر عن غيبتك، وتغيّب عن حضورك)(47).

ويأتي هذا التولّد بصيغ كثيرة، بعضها اسمي، نحو قوله: (ياهذا إن الذي صمدُك إليه، وولهُك فيه، وإيماؤك نحوه، وإعجابُك منه: حاضرُه غائب، وغائبُه حاضر، وحاصلُه مفقود، ومفقودُه حاصل، والاسمُ فيه مُسمّى، والمسمّى فيه اسم، والتصريح فيه تعريض، والتعريض به تصريح، والإشارة نحوه حجاب، والحجاب نحوه إشارة. وهذه قصّة لا تُعرف إلا به، وحال لا تُعزى إلا إليه.)(48)

فتبدو هذه المعاني المتضادّة المتنوّعة والمتتالية في سياق واحد متعلّقة بالذات الإلهية أطلق عليها التوحيدي قصّة لا يمكن معرفة كنهها وحقيقتها إلا بمعرفة هذه الذات وصفاتها، جلّت وعزّت، وهذا التولّد استند إلى تكرار الكلمات المكوّنة لهذه الجمل على سبيل التبادل في المواقع والعلاقات الضدّية الواضحة.

وقال أيضا مُعبّرا عن عجبه من أشياء تبدو متضادّة في حقيقتها بتراكيب اسميّة معكوسة متوالدة عن بعضٍ: (فيا عجبا من فلكٍ هو أسر، ومن أسرٍ هو فكّ، ومن تخليةٍ هي حصر، ومن حصرٍ هو تخلية.)(49) فهذه مشاعر وهواجس، حقيقتها ضدّ ظاهرها، يبدو أنّ الصوفي يشعر بها في تجربته التعبّديّة الخاصّة أحيانا.

ويتحدّث التوحيدي عن الصوفي الذي أفلح في سلوكه الطريق ووصوله إلى غايته، فهو السعيد الذي تحدّث عنه في أحواله المختلفة موظّفا عكس المعاني في سياق علاقاتها التضادّية التي هي أوصاف هذا الصوفي في مقامه الذي أهّله ليكون هو السعيد الذي قال عنه: (يا هذا: السعيد من استطبَّ لسقمه، وسعى في طلب عافيته.. وأنس بالوحشة، واستوحش من الأنس، وقال وهو ساكت، وسكت وهو قائل)(50)، فقد استعمل جملا فعليّة متضادّة ومتتالية تتضمن كلمات مُشتقّة من بعضها، فالفعل استوحش أُشتقّ من الوحشة والأُنس أُشتقّ من الفعل أَنِسَ وسكتَ من ساكت، مُشيرا إلى أهمّية استمرار الصوفي على ما هو عليه ليبقى سعيدا بما ناله.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

ويستعمل التوحيدي أفعالا مضارعة متتالية متضادة المعاني واصفا بها الذاتَ الإلهية ولطائفَه ومننه على عباده بقوله: (له لطائف لا تهتدي إليها الأمانيّ، ونِعَمٌ لا يلحقُها سير السّواني، يمنع وهو في منعه مُعطٍ، ويَحرم وهو في حرمانه واهب، ويضع وهو في وضعه رافع، ويرفع وهو في رفعه واضع، ويُذلّ وهو في إذلاله مُعِزّ، ويُعرض وهو في إعراضه مُقبل، ويَبعد وهو في إبعاده مُقرِّب. الظاهرُ عند الخلق بمبلغ علمهم باطنٌ عنده بخافي حكمته، والباطن عنده مجهول عند سواه.)(51)، ويبدو استعمال التوحيدي الأفعال المضارعة في ذكره تعالى وجلّت صفاته مقصودا لإظهار تجدّد هذه الصفات الإلهية في ذاته العليّة واستمرارها. وقد عمد التوحيدي في هذا النص إلى تكرار صيغة الجملة الاسمية التي جاءت جملة حالية (وهو في..) والتي تضمنت معانٍ متضادة متتالية، ممّا عمّق هذه الصفات وأبانها مستندا إلى ما تتمتع به اللغة العربية من قدرة اشتقاقية تستوعب بها المعاني التي بدت ظواهرها التي يراها الخلق هي ضدّها عند الله تعالى، فهو عند منعه شيئا يُعطي، وعندما يَحرم يهب، ويضع أحدا في الظاهر هو يرفعه في قصده، وبالعكس تراه يرفع غير أنه في الحقيقة يضع، وهكذا. وقد ظهرت في هذا النصّ عناصر إيقاعيّة مثل السجع والتوازن أسهمت في تعميق المعاني واتضاحها، فضلا عن ظهور أسلوب قرآني واضح فيه.

ويدعو التوحيدي من يخاطبه إلى الاهتمام بنفسه الضعيفة ومُداراتها وأخذها بالتدرّج في التعامل معها مختارا الحال الملائمة، مستعملا لهذا صيغة المضارع المجزوم بـ: لا الناهية، في قوله:

(فاللهَ اللهَ في نفسك الضعيفة، لا توردها إلا بعد الثقة بصدرها، ولا تُصدرها إلا بعد الأمن من ورودها.)(52)

وتتعدد الصيغ الفعليّة التي حقق بها التوحيدي العكس الضدّي، ومنها استعماله صيغة فعل الأمر على نحو متتال مستند إلى التولّد الاشتقاقي الذي أنتج به معاني متضادّة متعاقبة، مما مرّ بنا سابقا وما نقرأه في قوله: (فاسترسل الآن في نفسك باحثا عن أمرك وخبرك.. فعساك تظفر بمرادك ونظرك وعِبَرك، فإنك ملك في ملك، فانفض الملك ناشرا، وانشره نافضا، وقابله مُدابرا، ودابره مُقابلا، وياسره مُعاسرا، وعاسره مُياسرا، وتقلّب طالبا، وتطلّب متقلبا. فإنك تصعد باختلاف هذه الحالات في سلاليم هذا العالم المنضود بالحكمة، المنظوم بالقدرة، المنقوش

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

بالزينة، المزيّن بكلّ حلية مخزونة.)(53) ولعل التوحيدي قصد من قوله هذا الذي خاطب به أحدا بـ: (يا هذا) في الموضع نفسه، أن السالك الراغب في العروج إلى آفاق الحكمة الإلهية لا بد له من أن ينزع عنه كلّ المتعلّقات التي تجرّه إلى الانغماس في الدنيا وشهواتها ومُغرياتها نزعا مُطلقا أبانه بتقليبه المعاني بعكسها واشتقاق جزئيّاتها منها، إذ قد اشتق أفعال الأمر من اسماء فاعلين، فالفعل انشرْه اشتقّه من ناشرا، ودابرْه من مُدابرا، واشتقّ أيضا بعض اسماء الفاعلين من أفعال أمر سابقة عليها، فمُياسرا من ياسرْه، والفعل تطلّب من طالبا، وفي الموضع نفسه اشتقّ اسم المفعول مُتطلَّبا من الفعل تطلَّبْ.

واستعمل صيغة الاستفهام في سياق عكس المعاني وتولّد أضدادها، وقد خاطب من خاطبه في الإشارات الإلهية موجّها إليه لومًا على ضلالة وقع فيها، في سياق ذكره معانيَ صوفية خاصة في قوله: (أيها النائي عن العرصة، الجاهل بانتهاز الفرصة، الصابر على تجرّع الغُصّة: اشتق إليه واجدا به، وجُد به والها فيه، ولُه فيه متهالكا عليه، وتهالك عليه ناسيا لما عداه، وامحُ البينونة بينك وبينه. أتدري ما البينونة؟ البينونة هي الكينونة، هي أنت: أنت الكينونة بآفاتك، وأنت البينونة بشهواتك. فكيف تجد وقد ضللتَ عنك، بل كيف تضلّ عنك وقد وجدتَك ؟ ضللتَ بإرادتك التي غمستكَ في بحار شهوتك...)(54) فالتوحيدي وظّف العكس الضدّي بأكثر من صيغة تجلّت في الأمر الضدّي التولّدي وفي الاستفهام الذي قصد به لوم المخاطب وتقريعه كما يتّضح من طريقته في إيراده، مؤكدا للمخاطب أن ما أبعده عن الله تعالى والوصول إليه هي شهواته التي انساق إليها بإرادته، فالبينونة هي بُعدُه عن مبتغاه، والكينونة هي ذاته التي انغمست بالشهوات فكانت بما انغمست به.

ويولّد هذا العكس دلالات ضدية عميقة كما قرأنا، ولعلّ هذا يُلزم البحث بوضع هذا النمط التولّدي تحت عنوان المستوى الدلالي انسجاما مع مُفردات المنهج الأسلوبي الذي انبثق عنه منهج دراستنا هذه الظاهرةَ الغنيّة والمثيرة، على أن صلة هذا التولّد بالاشتقاق دفعنا لوضعها بعد التولّد الاشتقاقي، ولا يخلو كيان لغوي شكلي من دلالة يحققها أو يؤدّيها في سياق موقعه مما جعلنا نُبقي هذا التولّد الضدّي بعد التولّد الاشتقاقي الذي انبثق عنه.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

وثمّة عكس توافقي تأتي المعاني المولَّدة فيه غير متضادة بل متوافقة ولا نقول متفقة لظهور بعض اختلاف بينها أحيانًا بيد أنه لا يصل إلى التضاد. وهو، من حيث الكمّ، أقلّ من العكس الضدّي، منه قوله: (والأمر تصريفُه بالدواعي الباعثة، والبواعث الداعية، وبالصوارف المانعة، وبالموانع الصارفة.)(55) فالأمر الذي قصده هنا هو تصريف شؤون الخلق اختيارا أم اختبارا، فعبّر التوحيدي عمّا رآه بعكس المعاني على نحو توافقي أراد به تقليب المعنى ومسكه من طرفيه ليكون كلامه مستوعبا كلَّ الإحتمالات الممكنة، مُفيدا من المزيّة الاشتقاقية للغة العربية في هذا، فقد اشتقّ صيغة الجمع البواعث من اسم الفاعل الباعثة، واسم الفاعل الداعية من الجمع: الدواعي، والموانع من المانعة والصارفة من الصوارف.

ويُطري على من عرف الله تعالى فتمكّن من وصفه، أو عرف صفاته فهداه هذا إلى معرفته بقوله: (طوبى لمن عرفك فوصفك، أو وصفك فعرفك)(56)، فعكس المعنى لاستخراج كلّ احتمالاته، فالتوحيدي يرى أن معرفة الله تعالى تُفضي إلى إدراك أوصافه، وإدراك أوصافه تعالى تُحقّق معرفته عند العبد الساعي إليه.

التولّد التركيبي:

تجلّت ظاهرة التولّد في أكثر من صيغة أو شكل لغوي، كان من أبرزها تولّد التراكيب من تركيب سبقها مثّل نواة تَتَالَى بعدها تراكيب منبثقة عنها، وهي تستند إلى تكرار الكلمة الأخيرة من الجملة السابقة وبدء الجملة المولَّدة بها، أو إلى بدء الجملة المولَّدة بما أُشتُقّ من كلمة في الجملة السابقة، وتتوالى الجمل أو التراكيب على هذا النحو حتى يصل التوحيدي إلى ما يبتغيه من تتبّع المعنى و تعمّقه وتشقيقه.

وقد تنوّعت هذه التراكيب، على أنّ أكثرها ظهورا هو تركيب الشرط الذي كان أكبر التراكيب ظهورا في كتاب (الإشارات الإلهية)، من الناحية الكمية، إذ مثّل ظاهرة تركيبية واضحة تعددت أنماطها،(57) على أننا لا نُعنى هنا بتركيب الشرط المعتاد، مما تناولنا بعضه في التولّد التَّكراري، بل بالتركيب الشرطي التولّدي الذي احتلّ أيضا موقع الصدارة بين التراكيب اللغوية التولّدية في هذا الكتاب، ومع أن التركيب الشرطي هو تركيب يقوم على فكرة التولّد، مما هو معروف، ففعل الشرط يولّد فعل الجواب أو جملة جواب الشرط، يتوخّى هذا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

القسم من البحث تركيب الشرط بركنيه الذي يولّد تراكيب أخرى تتلو التركيب أو الجملة الأولى والذي قلنا إنه يحتل الصدارة بين التراكيب المولّدة مما يدعونا إلى البدء بتناوله.

إن التراكيب التي تولّدت عن تركيب الشرط على قسمين، الأول وهو التركيب الشرطي، أي أن تركيب الشرط يولّد تراكيب شرطية أخرى منبثقة عن الشرط الأول، بالاستناد إلى التكرار أو الاشتقاق كما قلنا ممّا سيتضح في تناولنا عددا من الأمثلة المعبّرة عن هذه الظاهرة، أما القسم الآخر فهو تولّد تراكيب أخرى عن تركيب الشرط.

ونتابع تركيب الشرط من خلال أدواته فنبدأ بأكثرها ورودا، وهي (إذا) أداة الشرط غير الجازمة والظرف الدال على المستقبل، ولعلها الأكثر مناسبة للاستعمال في التولّد، فما يشترطه فعل الشرط من جزاء يتحقق في زمن قابل لابدّ منه، من ذلك قوله مناجيا الله تعالى: (اللهم :فكما ملكتنا فارفق بنا، وإذا رفقتَ بنا فاعتقنا، وإذا أعتقتنا فاقبلنا، وإذا قبلتنا فكن لنا، وإذا كنت لنا فكن معنا، وإذا كنت معنا فأنت أنت يا وليَّ الحمد)(58)، فكلّ الأفعال المناطة بالله تعالى تولّد أفعالا أخرى مشروطة بها، فرفق الله تعالى بعبده يحتاج لتحقق سلوك خاصّ مُعبّر عن إيمان مُطلق به، كذلك المعاني الأخرى، مما يحتاج إلى زمن اقتضى استعمال إذا الشرطيّة غير الجازمة الدالة على المستقبل من الزمان. وقد استند هذا التولّد إلى اشتقاق الفعل الوارد في أوّل الجملة اللاحقة المولَّدة من الفعل الوارد في آخر الجملة السابقة، ففعل الأمر ارفقْ ولّد الفعل الماضي رفقتَ، وفعل الأمر فاعتقنا ولّد الماضي اعتقتنا، والأمر فاقبلنا ولّد الماضي قبلتنا، وفكن ولّد كنت.

ويخاطب مريدا صوفيّا عمّا يراه في علاقته بمولاه الله تعالى بقوله: (ولن تعرف حقيقة ما تسمعه إلا بأن تتحقق أنك عبد، فإذا تحققتَ أنك عبد تحققتَ أنه مولى، وإذا تحققت أنه مولى تحققت أنه ليس بين المولى والعبد حقدٌ ولا تِرَة ولا طائلة)(59)

فتحقق العبوديّة الخالصة لله تعالى يقتضي زمنا يبرهن به العبد صدقه في علاقته بالله تعالى وسلوكه مع غيره حتى يتيقّن أنه هو مولاه ولا غيره، موظّفا الاشتقاق والتكرار لتصوير هذا المعنى، فالاسم: حقيقة ولّد فعلين ماضيين هما: تتحقّقَ وتحققتَ الذي كُرّر ثلاث مرّات.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

ويخاطب التوحيدي المريد الصوفيَّ أيضا الذي اعتاد خطابه بـ: يا هذا ناصحا له بأن يمارس سلوكه الصوفي من دون إسراف ولا غلوّ فتكون أخلاقه منطلقة من حقّ لابد له من التمسّك به، بقوله: (تعلّم كلَّ خُلُق في حقّ، وإذا عطشتَ فلا ترد، وإذا وردتَ فلا تروَ، وإذا رويتَ فلا تزدَد، وإذا ازددتَ فلا تعُد، وإذا عدتَ فلا تذُق، فإنك بهذه الدرجات المختلفة تنالُ تلك الفُسيحات المؤتلفة والسلام.)(60)

ولا شكّ في أنّ للوِرد و الريّ والزيادة والعَود دلالاتٍ رمزيةً تعبّر عن درجات خاصة في العبادة إن نالها المريد نال بها الأحوال المرتجاة، ونيلُ هذه الدرجات يحتاج لزمن قابل مما جعله يستعمل إذا في هذا السياق. وقد أُشتُقّ الفعل الماضي وردتّ من المضارع المجزوم بلا الناهية: لا ترد، والفعل رويتَ من المضارع المجزوم لا تروَ، وازددتَ من لاتَزدَد، وعدتَ من لا تعُد، في سياق تولّدي مفضٍ إلى عميق المعاني وخفيّاتها.

وثمة استعمالاتٌ أخرى لهذا الأداة الشرطية المقترنة بزمن المستقبل(61)، على أنه استعمل أدوات أخرى، منها (لو) التي هي أيضا أداة شرط غير جازمة تفيد الامتناع للامتناع، نحو قوله مناجيا الله تعالى ومُشيرا إلى أحوال الخلق معه واكتسابهم المقامات الرفيعة عنده تعالى تبعا لمعرفتهم به وصدقهم في حبه: (إلهنا: جهلوك فخالفوك، ونكروك فجحدوك، ولو فطنوا لما فاتهم منك لأحبّوك، ولو أحبّوك لعبدوك، ولو عبدوك لعرفوك، ولو عرفوك لكنت لهم فوق الأم الرؤوم والأب الرحيم يا ذا الجلال والإكرام.)(62) فحبّ الصوفي ربَّه منوط بمعرفته تعالى التي إن حصلت فسوف يعبده حقّ العبادة على أنها أمور لم تحدث بعدُ وتحتاج زمنا.

واستعمل التوحيدي أدوات شرطيّة أخرى(63) وظّفها في إظهار المعاني وتتبعها وتعمّقها في تراكيب شرطيّة تولّدت عن جملة شرطيّة.

ويولّد تركيب الشرط أيضا تركيبا أو تراكيب أخرى غير شرطية، من ذلك تولّد التركيب الخبري الاسمي عن الشرط الذي استعمل له الأداة الشرطية الجازمة (إن) بقوله متحدّثا إلى المريد في محبّته الله تعالى: (اعتقد محبّتَه ولا تُبدِها: لا مُصرّحا بها ولا كانيا عنها، لأنك إن أبديتَها مزجتَها ،والمزج كَدَر، وإن كتمتَها صُنتَها، والصون صَفو.)(64) فالتوحيدي يرى ضرورة كتمان العبد محبتَه اللهَ تعالى ليصونها ويحافظ على صفائها وصدقها موضحا الأمر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

بجملتين اسميتين ولّد كلَّ واحدة منهما تركيبٌ شرطيّ، فقد ارتبطت الجملة الاسميّة الأولى بجملة الشرط المولّدة لها باشتقاق مبتدئها (المزج) من الفعل مزجتها، مما تحقق في الجملة الاسمية الثانية في اشتقاق (الصون) من صنتها.

أما القسم الآخر من التولّد التركيبي فهو تولّد تراكيب متنوّعة من تركيب غير شرطي، من ذلك تولّد التركيب الخبري الاسمي من تركيب فعل الأمر، وقد كرر في هذا السياق تركيب النداء للتنبيه والتخصيص، حتى تدفّق هذا التولّد ليجاوز العشر جمل، نقرأ منها قولَه: (فيا أيها المكفيّ اسعد، فقد قيل: السعيد من كُفي، ويا أيها المدبِر: أقبل، فالمغبوط من أقبل، ويا أيها العاقل تنبّه، فالمجدود من تنبّهَ، ويا أيّها الجاهل اعلم، فالناجي من عَلِم، ويا أيها العالم اعمل، فالراجي من عمل...)(65)، مستندا في هذا التولّد إلى اشتقاق الصفة المشبَّهة: السعيد من فعل الأمر: اسعد، الفعل الماضي: أَقبلَ من الأمر: أقبِل، وتنبَّهَ من تنبّهْ، وعلِمَ من اعلَمْ، وعمِلَ من اِعمَلْ، وهكذا.

وولّد تراكيب فعلية، فعلها أمر، من فعل أمر أيضا مستندا إلى علاقات اشتقاقية تجعل من هذه التراكيب متماسكة على نحو قويّ بقوله: (أيها النائي عن العرصة، الجاهل باقتناص الفرصة، الصابر على تجرّع الغُصّة: اشتق إليه واجدا به، وجُد به والها به، ولُه فيه مُتهالكا عليه، وتهالك عليه ناسيا لما عداه..).(66) فقد اشتقَّ فعل الأمر: جُدْ من اسم الفاعل: واجدا، والفعل: لُهْ من اسم الفاعل: والها، والفعل: تهالَكْ من اسم الفاعل: مُتهالكا.

وولّد تركيبا خبريا اسميّا من نظيره في خطابه من اعتاد خطابه بـ: يا هذا بقوله: (فالوقت حادّ، فكُن من حدّته على حذر. والحَذَر هنا أن يكون همّك بالعلويّات الأبديّات الدائمات الباقيات الصالحات الناعمات، فإن اعتلاق الهمّ بها استغراق لمحاسنها، وفي هذا الاستغراق تشبّهٌ كثير بمعانيها، وفي هذا التشبّه بروزٌ لحقائقها، وفي هذا البروز لحقائقها الفوز بنعوتها، ومن نعوتها خلودُها..)(67)، فقد استند التولّد هنا إلى الاشتقاق والتكرار، فالمصدر: حدّته أُشتقّ من اسم الفاعل: حادّ، وكرّر كلمات: استغراق وتشبّه وبروز التي جاءت مرةً نكرة، ومرّةً مُعرّفة، فضلا عن كلمة نعوتها التي جاءت مُعَرّفة بالإضافة مرّتين.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

ومن التولّد أيضا تولّد تركيب الاستفهام من التركيب الخبري الاسمي في قوله: (السلامة فيه غنيمة، فكيف الغنيمة؟ العبوديّة فيه ربوبية، فكيف الربوبيّة؟ البعضُ فيه كُلّ، فكيف الكُلّ؟)(68)، مُكرِرا عدة كلمات هي: غنيمة وربوبيّة وكلّ التي جاءت نكرةً مرّة ومعرفةً أخرى، فضلا عن تكرار اسم الاستفهام: كيف ثلاث مرّات.

وولّد ايضا تراكيب استفهامية من تراكيب استفهامية سابقة عليها في قوله: (وأين علمُك من تأدّبك، وأين تأدّبك من تهذّبك، وأين تهذّبك من ترتّبك..)(69) فقد استند هذا التولّد الاستفهامي إلى تكرار الكلمة الأخيرة من الاستفهام المولِّد لتكون الأولى في الاستفهام المولَّد، مع تكرار اسم الاستفهام: أين ثلاثا.

وولّد تراكيب قصر عديدة من تراكيب قصر سبقتها، باستعماله: ما المنتقض نفيها بإلا، في سياق وعظي قائم على الزجر، وعلى الإغراء أيضا في قوله: (يا أهل الجفاء، تأهّبوا لقوارع البلاء، ويا أهل الولاء توقّعوا حلاوات الصفاء..أيها المعرضون عن الله استأنفوا إقبالكم إليه، إنه ما أقبل إليه أحدٌ إلا قبله، ولا قبِل أحدا إلا خصّه، ولا خصّ أحدا إلا اجتباه، ولا اجتبى أحدا إلا اصطفاه، ولا اصطفاه إلا ولّاه، ولا تولّى أحدا إلا كفاه، ولا كفى أحدا إلا ملأ قلبه وجدا به، وطوّق عنقه حِلية منه، وبسط لسانه في الوصف له، وأعلى كعبه مباهاة به)(70) مُكرّرا عدة كلمات، فكُرّر الفعل: قبِلَ مرّتين، وخصّ واجتبى واصطفاه وكفى أيضا، وأُشتقّت أفعال من كلمات أخرى سبقتها، فالفعل: أقبل أُشتقّ من المصدر: إقبالكم، والفعل: تولّى من الفعل: ولّاه.

واستعمل التولّد في أسلوب التعجّب أيضا في قوله: (فما أشقانا إن جهلناك، وما أجهلنا إن خالفناك بعد أن عرفناك..)(71) مستندا إلى اشتقاق صيغة ما أفعلنا: ما أجهلنا من الفعل الماضي: جهلناك.

إنّ النصوص التي أوردناها عن ظاهرة التولّد في كتاب (الإشارات الإلهية) للتوحيدي لا تُغني عن قراءة نصوصٍ أخرى كثيرة منها وجدنا فيها متعةً عقليّة وفكريّة أكدت ما عرفناه عن التوحيدي من قدرة على تطويع الفكر وجعله فنّا يُثير الانفعال بعد أن أغنى العقل.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

ولا يدّعي هذا البحث شموله المطلق كلّ أنماط التولّد في كتاب (الإشارات الإلهية) على أننا اجتهدنا في تقصّي أهمّها وأكثرها وضوحًا وقوّةً.

الهوامش:

1-سامي محمد عبابنة، **التفكير الأسلوبي، رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث**، عالم الكتب الحديث، بيروت، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، 2007م،13، 20، ابن يحي، د.محمد، **السمات الأسلوبية في الخطاب الشعري**، عالم الكتب الحديث، أربد، 2011م، 33، الحربي، فرحان بدري، **الأسلوبيّة في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب**، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر(مجد)، بيروت، 1424هـ/ 2003م، 19 .

2-أبو العدوس، د.يوسف، **الأسلوبيّة: الرؤية والتطبيق**، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، 1427هـ/ 2007م، 54.

3-التوحيدي، أبو حيّان (-414هـ)، **الإشارات الإلهية**، تحقيق: الدكتورة وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1973م. وهي الطبعة المعتمدة في هذا البحث ،وثمة طبعة سابقة معروفة لهذا الكتاب بتحقيق: د.عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950م.

4-عباس، د.إحسان، **أبوحيان التوحيدي**، دار الثقافة، بيروت، 1956م، 152.

5-التوحيدي، السابق، 39.

6-عمر، د.فائز طه، **النثر الفني عند أبي حيّان التوحيدي**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2000م،211.

7-عمر، **النثر الصوفي دراسة فنية تحليلية**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،2004م، 322.

8-القيرواني الأزدي، أبوعلي الحسن بن رشيق(456هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م،1/ 218.

9-ابن منظور، جمال الدين الأفريقي(711هـ) ، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت، 3/ 469.

10-غيث، أميرة محمد، **الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي، دراسة لغوية**، رسالة مُقدَّمة لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة إلى قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، بإشراف: أ.د.أحمد يوسف علي، ود.علاء عبد المجيد القنصل ،2002م، 119، 146.

11-عمر، **النثر الصوفي**، سابق، 322.

12-التوحيدي، السابق، 19.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

13-الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر(255هـ)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1415،5هـ/ 1985م ، 90/3.

14-نفسه، 91/3، ويُنظر، ضيف،د.شوقي، **العصر الإسلامي**، دار المعارف بمصر، ط7، 1976م، 436_ 448.

15-مبارك، د.زكي، **النثر الفني في القرن الرابع**، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1987م، 170/2، المقدسي، أنيس، **تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي**، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1968م، 191.

16-عبد العظيم، محمد، **في ماهيّة النصّ الشعري، إطلالة أسلوبيّة من نافذة التراث النقدي**، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1415هـ/1994م، 24.

17-أبو العدوس، سابق، 54.

18-ابن جنّي، أبو الفتح (293هـ)، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجّار، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1983م، 33/1.

19-التوحيدي، السابق، 22.

20-نفسه، 37.

21-القشيري، أبوالقاسم(456هـ)، **الرسالة القشيرية**، تحقيق: د.عبدالحليم محمود، ود.محمد بن شريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1972م، 305/1، ويُنظر، عمر، **النثر الصوفي**، سابق،162.

22-التوحيدي، السابق،22.

23-نفسه، 25.

24-نفسه، 59.

25-نفسه، 81.

26-نفسه، 81.

27-نفسه، 103.

28-عمر، د.فائز طه عمر، **الثنائيّات في فكر التوحيدي**(بحث)، مجلة الحكمة، بيت الحكمة، بغداد، 1422هـ/2004م، ع37، 145.

29-التوحيدي، السابق، 359، 376.

30-الأنطاكي، محمد، **دراسات في فقه اللغة**، دار الشرق العربي، بيروت، ط4، د.ت،(ط1، 1398هـ/ 1969م)، 331.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

31-نفسه، 341.

32-التوحيدي، السابق، 8، 16، 22، 106، 141، 150، 181، 279 وغيرها.

33-نفسه، 6، 8، 48، 58، 161، 238، 275، 313، 402 وغيرها.

34-نفسه، 6، 7، 10، 49، 66، 128، 135، 162 وغيرها.

35-نفسه، 6، 22، 48، 96، 106، 171، 186، 289، 298، 314 وغيرها.

36-نفسه، 33.

37-نفسه، 152.

38-نفسه، 82.

39-نفسه، 365.

40-نفسه، 16.

41-نفسه، 351.

42-نفسه، 295.

43-طبانة، بدوي، **معجم البلاغة العربية**، دار المنارة، دار الرفاعي، الرياض، ط3، 1408هـ/1988م، 442، ويُنظر، مطلوب، د.أحمد، **معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1407هـ/ 1987م، 3/ 87.

44-طبانة، السابق، 553.

45-نفسه، 349.

46-التوحيدي، السابق، 97.

47-نفسه، 171.

48-نفسه، 264، 265.

49-نفسه، 197.

50-نفسه، 186.

51-نفسه، 351_ 352 . وسير السوابي أي السير الذي لا ينقطع.

52-نفسه، 275.

53-نفسه، 239.

54-نفسه، 333.

55-نفسه، 163.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589

56-نفسه، 372. ويُنظر، نفسه، 58، 203، 208، 211، 331، 334.

57-غيث، سابق، 147_169.

58-التوحيدي، السابق، 130.

59-نفسه، 272.

60-نفسه، 459.

61-نفسه، 25، 96، 129، 160، 330، 443، 458.

62-نفسه، 355 _ 356.

63-نفسه، 81، 88، 151، 160، 267، 416.

64-نفسه، 124. ويُنظر، نفسه، 196، 226.

65-نفسه، 335.

66-نفسه، 333.

67-نفسه، 172.

68-نفسه، 71. ويُنظر، نفسه، 292.

69-نفسه، 443.

70-نفسه، 332. ويُنظر، نفسه، 106.

71-نفسه، 150.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/589